مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 13، العدد 51 (صيف 2002)، ص 104

زكريا محمد*

النص الفلسطيني والنص الصهيوني**

يبدو النص الفلسطيني، ظاهرياً، كما لو أنه حصين وليس من السهل على الخصم اختراقه. فهو نص ينشئ ذاته بذاته، غير معتمد على أحد. لكن نظرة أُخرى معمقة تظهر، وعلى نحو غير متوقع ربما، أن هذا النص ملوَّث بالنص الصهيوني وأسير له، إلى حد بعيد، في بعض المجالات على الأقل. ففي حقل التاريخ القديم والحديث ودراسة تاريخ الهوية، بالذات، يظهر هذا النص كما لو أنه تأتأة تنبع من النص الصهيوني.

من أجل هذا، يجب أخذ كل المسلمات فيما يتعلق بتاريخ فلسطين وتاريخ الهوية الفلسطينية على محمل الشك، دوماً. فهي مسلمات لا تحمل طابعاً تأسيسياً، أي أنها ليست إنشاء خاصاً، بل هي ردة فعل على النص التأسيسي الصهيوني، إمّا عبر القبول بفرضياته، كما هي أو معدّلة، وإمّا عبر الذهاب في "المعاكسة" التامة لهذا النص. وهي، في الحالين، ظل له. وربما سيمضي زمن طويل قبل أن يتخلص النص الفلسطيني من هذا التلوث.

وفي حقل التاريخ، عقّد قيام دولة إسرائيل علاقة الفلسطينيين بتاريخ بلدهم. فقد رأوا كيف عمل مؤرخو الصهيونية، يدعمهم جيش كامل من المؤرخين التوراتيين، على أن تبتلع لحظة قصيرة وصغيرة من هذا التاريخ المغرق في طوله تاريخ البلد كله. لقد جرى تكبير هذه اللحظة لتمتد على مساحة تاريخ فلسطين، على الرغم من أنه "من منظور أوسع وأطول زمناً، فإن تاريخ إسرائيل القديم يبدو كلحظةٍ في التاريخ الفلسطيني الطويل."[1] كذلك جرى التركيز على هذه اللحظة باعتبارها جوهر هذا التاريخ. فكل ما قبلها باطل، أو على الأقل إعداد لها بالسلب. أي أن هذه اللحظة ابتلعت كل اللحظات.

وهكذا وجد الفلسطيني نفسه أمام تاريخ لبلده محبوك بإحكام وبهدف واحد ووحيد: وضعه هو خارج التاريخ. لقد وجد نفسه، فجأة، من دون تاريخ، ومن دون ماض. صار مجرد ضيف على هذا التاريخ لا غير. فـ "نحن الآن حيال تصوّر نبدو فيه بلا ماض. كأن ماضينا بدأ منذ قليل، فيما الماضي ملك الآخر."[2] واستملاك التاريخ، في الواقع، "شأن من شؤون الحاضر" أكثر مما هو شأن من شؤون الماضي، كما يقول

(*) شاعر وكاتب فلسطيني، مقيم برام الله.

(**) فصل من كتاب "في قضايا الثقافة السياسية" للكاتب، والذي سيصدر قريباً عن "مواطن"، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، رام الله، 2002.

أحد المؤرخين. وعليه، فإن استملاك ماضي فلسطين كان إكمالاً لاستملاك الحاضر وتأكيداً له. والحاضر كان يقتضي إزاحة الفلسطينيين من التاريخ.

فوق ذلك، بدا تعديل هذه الصورة مستحيلاً تماماً. فالتاريخ المحبوك والمزيف الذي تم بناؤه ليس تاريخاً فحسب. إنه تاريخ مقدس أيضاً، وقبل كل شيء. وهو، في الحقيقة، تاريخ مقدس من جهتين، لا من جهة واحدة: إنه يخص حاجة الغرب الروحية من جهة، ويقدِّم اعتذاراً شاملاً عن "الهولوكوست" من جهة أُخرى. وعليه، فإنك إن مسسته مسست تاريخ الروح الغربي كله، ومددت "الهولوكوست" إلى الماضي!!

من هنا فقد بدا الاعتراض على هذا التاريخ أمراً غير ممكن، أو محظوراً. وإن لم يكن كذلك فهو متخرّب وغير عقلاني. وهذا ما أورث الفلسطينيين شعوراً بأن تاريخهم "اغتُصب". لقد تم اغتصاب الماضي، أيضاً، لا الحاضر فقط. وهكذا نُقلت الحرب إلى الماضي، فاستحضرت الجماجم والهياكل العظمية كي تحمل السلاح. وتحوّل الآركيولوجي إلى جنرال، والجنرال إلى آركيولوجي (ولنتذكر الجنرال يادين: فهل كان جنرالاً أم آركيولوجياً؟ ثم لنتذكر دايان وهوسه بالآثار). لقد تحوّل الماضي، إذاً، إلى مهمة حربية من الطراز الأول. وهذا ما أرغم الفلسطينيين على الحرب على جبهتين: الحاضر والماضي. وكما تم طرد مئات الآلاف منهم من بيوتهم بإشارة من يد بن – غوريون، تم طردهم من التاريخ بإشارة من يد آركيولوجي.

هذا الوضع سقط على الفلسطينيين من حيث لا يدرون. فهم لم يكونوا على استعداد كاف لحرب من هذا الطراز. لذا، يمكن القول إنهم نُكبوا في حقل التاريخ كما نُكبوا في الحرب. إذ بدا "كما لو أن التاريخ القديم (لفلسطين) تُرك لإسرائيل والغرب."[3]

ويدل على ذلك أن الفلسطينيين لا يشاركون في النقاش الذي دار ويدور بشأن تاريخهم القديم (تاريخ ما قبل الميلاد خاصة). إنهم، إن أفلحوا، يتمكنون من متابعة هذا النقاش والتعليق عليه أو ترجمة أجزاء منه إلى جمهورهم فقط. وهكذا، فحين نتحدث عن تاريخ فلسطيني للماضي القديم فإننا نتحدث عن تعليقات لا تثير اهتمام أحد من المعنيين حقيقة بتاريخ فلسطين القديم.

هذه التعليقات أخذت اتجاهين يمكن تسميتهما الاتجاه "المعارض" والاتجاه المسالم. الاتجاه الثاني يكتب، جوهرياً، التاريخ الفلسطيني كما يكتبه مؤرخو العهد القديم. إنه يتقبل الإنشاء التوراتي مبدئياً. فحين يصل، مثلاً، إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد يسرد قصة عبور العبرانيين إلى أريحا وعاي. وكل ما يفعله هو أن يحوّلهم إلى أشرار بدل أن يكونوا أخياراً كما في التوراة، أو في الرواية الصهيونية. وحين يصل إلى القرن العاشر قبل الميلاد يبدأ بالحديث عن شاول وداود، وبالسنوات المحددة... وهكذا. وكمثال لذلك، نأخذ كتاباً جيداً عنوانه "الموجز في تاريخ فلسطين السياسي". فعلى الرغم من أن هذا الكتاب يبدي شكوكاً في شأن التوراة وتاريخية رواياتها، فإنه

لا يتورع، بعد ذلك، عن أن يكتب ما يلي: "أمّا داود (1004 – 965 ق.م.) [لاحظ هنا تحديد التاريخ بالسنوات المضبوطة!!!]، فبعد هروبه من وجه شاؤول الذي عزم على قتله، لجأ إلى ملك جات الفلسطي، أخيش، وعمل في خدمته حارساً لحدوده من هجمات القبائل المتنقلة في الصحراء، واتخذ مقراً له في مدينة تسجلاج..."[4].

إنه ينقل هنا من التوراة مباشرة، ويسمي ذلك تاريخاً. إنه لا يتورع حتى عن ذكر "تسجلاج"!! وهذا نموذج من التاريخ المستخذي الذي يخضع لهيمنة شبكة الأكاذيب التي بناها المؤرخون المتحزّبون في الغرب وإسرائيل.

لكن هذا التاريخ، في الحقيقة، هو التاريخ الشائع لدينا. إنك تراه معمَّماً بين الناس في كل مكان. وهو يتجاهل الثورة التي حدثت في تاريخ فلسطين القديم خلال ربع القرن الماضي على يد حفنة من المؤرخين الأجانب – لا العرب – الشجعان، والتي أدت إلى القول إنه "لم يكن هناك قط (مملكة متحدة) في التاريخ."[5] أي أنه لم يكن هناك داود وسليمان تاريخيان. لقد استندت هذه الثورة، طبعاً، إلى الواقع المادي الصلب الذي أنشأه الفلسطينيون بعد حرب 1967: واقع هويتهم وحركتهم الوطنية.

في الجهة الأُخرى، ثمة ما دعوناه بالتاريخ "المعارض". وهو تاريخ يهتم بالبحث عن "أصول" فلسطينية أبعد في التاريخ من الأصل الذي تفترضه إسرائيل لنفسها. وفي عمله هذا فهو يقبل جوهر المقولة الصهيونية بوجود أصلين وحقين يتصارعان منذ القدم فيما يتعلق بأرض فلسطين. أي أنه يقبل بحق صهيوني في أرض فلسطين ممتد في التاريخ. يبدأ الحق الأول من موسى، مروراً بشمشون، وانتهاء بالجنرال شارون. ويبدأ الحق الثاني من عناة، إلى دليلة، إلى حنان عشراوي.

وبذلك ينقلنا هذا الطراز من التاريخ، إذا اعتبرناه تاريخاً، إلى الميثولوجيا. وفيه يُحلّ "السجال حول الأصول محلَّ ذلك الأساسي المتعلق بأضرار الاستعمار والمشروع الذي أدى إلى استبدال شعب بآخر"، الأمر الذي أدى "إلى الخروج من التاريخ."[6] وهذا بحد ذاته مكسب صاف للصهيونية. فتاريخ الصهيونية هو، في الأساس، ميثولوجيا وليس تاريخاً. فهو، استناداً إلى الأسطورة، ينشئ تتابعاً زمنياً لما هو منقطع ولا يملك التتابع. كما أنه يختار نقطتي بداية ونهاية لتاريخ فلسطين هما: المملكة الموحدة في الماضي ودولة إسرائيل في الحاضر، باعتبارهما النقطتين اللتين يجب أن تحويا تاريخ فلسطين بجوهره. ثم يملأ ما بين هاتين النقطتين، بحيث يبدو من المحتم أن تؤدي الأولى إلى الثانية.

بل لعله يمكن القول إنه يُجمّد تاريخ فلسطين في النقطة الأولى وحدها. فإسرائيل الحديثة هي تكرار لإسرائيل القديمة كما يرى الصهيونيون. وعليه، فكل تاريخ فلسطين هو تكرار لنقطة أولى مقدسة. إنه تاريخ لا يتقدم، أو قل إنه يتقدم من أجل أن يعود إلى هذه النقطة فقط. إنه يبدأ بالمملكة الموحدة، ثم يمرّ بالهيكل الثاني ودماره، لينتهي

بإسرائيل الحالية (أو الهيكل الثالث كما يقال عند بعض الإسرائيليين)، التي هي تكرار لإسرائيل القديمة وبعث لها. إنه نمط ثلاثي هيغلي، لكن من دون صعود جدلي لولبي، بل عبر نزول يعيد إلى النقطة الأولى.

فالمملكة الموحدة هي الأطروحة، ودمار الهيكل الثاني هو نفيها، أمّا إسرائيل الحالية فنفي النفي. إنه بناء ثلاثي يأخذ شكل الجدل الهيغلي، لكنه لا يأخذ جوهره. ذلك بأنه يهدف إلى العودة المقدسة إلى النقطة الأولى.

وعندما انشغل "التاريخ" الفلسطيني، بمعارضة هذا التاريخ لا بإقامة تاريخ حقيقي مختلف، فقد كان هذا خروجاً من التاريخ إلى الميثولوجيا، كما قلنا. والحال أن الأمر هنا يشبه المصارعة اليابانية (السومو). فالمنتصر في هذه المصارعة هو من يخرج خصمه من الدائرة المرسومة. وبشكل ما، تمكن التاريخ الصهيوني من إخراجنا من دائرة التاريخ إلى دائرة الميثولوجيا. وبذا، فقد انتصر علينا، إذ "لا تعارض بين اعتبار الصراع التاريخي على أنه صراع بين ميثولوجيتين واحدة كنعانية والأُخرى عبرانية، وبين نظرية اليسار الصهيوني في اعتبار الصراع الحاضر صراعاً بين حقّين تاريخيين متساويين لحركتين قوميتين على الأرض نفسها."[7]

كان هذا منزلَقاً خطراً جداً؛ إذ أدى إلى التسليم للصهيونية بجزء من تاريخ البلد. لقد تم التخلي عن هذا الجزء. وكل المحاولات المنطلقة من هذا التاريخ "المعارض" كانت تهدف، فقط، إلى تقليص المساحة الزمنية للجزء الذي تم التخلي عنه للحركة الصهيونية.

والحال، إن في هذا كله كسراً للنظرية التي حاول الفلسطينيون أن يثبتوها خلال قرن من الصراع. فقد "حاربنا طيلة قرن من الزمن لكي نثبت أن الغزوة الصهيونية هي غزوة أوروبية ذات طابع خاص أفرزتها أحداث أوروبية وصدّرتها إلينا. وكان هذا استنتاجاً صحيحاً وسيظل. لكن الكنعانية [أي تحويل التاريخ إلى ميثولوجيا] تلغيه وتضربه. فهي توافق على أن يهود بولندا وروسيا أقرب إلى العبرانيين القدماء مني ومنكم. في حين أننا في الواقع ورثة كل الشعوب التي عاشت على أرض فلسطين."[8]

وهكذا، فإن الإنشاء التاريخي وشبه التاريخي الفلسطيني يعاكس الإنشاء السياسي الوطني، ويعطّله. من أجل هذا قلنا، سابقاً، إن النص التاريخي الفلسطيني هو أكثر النصوص تلوّثاً بالنص الصهيوني.

وبالانزلاق إلى مهاوي الميثولوجيا تشكل ما يمكن أن نسميه "الأيديولوجيا الكنعانية". وفي هذه الأيديولوجيا فإن أبطال الخشبة هم: إيل، وبعل، وعناة، وغيرهم. ولو أن الأمر تعلّق بالاستعانة بهذه الآلهة من أجل الخلق الفني، لما كان في الأمر ضرر. لكن التركيز عليهم جرى، في الواقع، كمعارضة للميثولوجيا الصهيونية. إذ تم وضع بعل في مقابل يهوه، في اعتراف ضمني بوجود الحقين المتصارعين كما تدعي

الصهيونية. وبدا الأمر، كما يقول باحث فلسطيني، وكأن صراعنا مع إسرائيل الحالية هو امتداد لصراع أقدم يبدأ "من حروب غزة مع شمشون [وينتهي] إلى حروب غزة مع شارون."[9] فشارون هو الوارث المباشر لشمشون!!!

هذه الأيديولوجيا في الواقع أيديولوجيا مثقفين، لا أيديولوجيا الناس العاديين. فهؤلاء الناس لا يستطيعون القبول بمثل هؤلاء الأبطال الوثنيين باعتبارهم اللاعبين الرئيسيين في التاريخ الفلسطيني. والحقيقة أن الموقف الديني الإسلامي أقرب إلى السلامة والصحة من موقف المثقفين هذا. فالإسلام يعتقد أن تراث العبرانيين القدماء جزء من تراثه، كما أن وحيه هو امتداد لوحي أنبياء إسرائيل. أي أن الإسلام يدمج ثقافة فلسطين القديمة في سياق ثقافته، على عكس ما تفعل الأيديولوجيا الكنعانية.

الغريب أن الكنعانية كانت في الثلاثينات من القرن العشرين أيديولوجيا لقسم من المثقفين اليهود الصهيونيين، الذين رأوا أن العبرانيين القدماء كانوا كنعانيين، وأن على اليهود الحاليين العودة إلى جذورهم الكنعانية. لا بل إنهم اعتقدوا أن عليهم عبرنة العرب الفلسطينيين، أي كنعنتهم، وإعادتهم إلى جذورهم القديمة. وهكذا، فالعدو ذاته ارتدى ذات مرة رداء الكنعانية.

طبعاً، يمكن فهم المغزى النفسي للأيديولوجيا الكنعانية. فقد كانت تعبيراً عن الصراع بشأن العمق الزمني مع الحركة الصهيونية. فإذا كانت الصهيونية صوّرت تاريخ فلسطين تاريخاً مكوَّناً من طبقات، بحيث ترتبط الطبقة الأعمق منه "باليهود الإسرائيليين، في حين أن مستوى السطح يقترن بالعرب، بوصفهم العنصر التاريخي (السطحي) المستجد، المفتقر إلى 'جذور'"،[10] فإن المثقفين الفلسطينيين كانوا يريدون إثبات العكس: أي أنهم ينتمون إلى طبقة أعمق من الطبقة التي يدعي الصهيونيون أنهم مرتبطون بها. فهم ينتمون إلى "كنعان" الذي كان موجوداً وراسخاً قبل الـ "عبور" إلى أريحا. وكان التشديد على الوجود في طبقة أعمق صراعاً بشأن الزمن لا بشأن التاريخ، بشأن البدايات لا بشأن الكتابة التاريخية.

والحال أن الثورة الجارية في تاريخ فلسطين القديم تثبت كل يوم أن كل الثنائيات التي عجّ بها تاريخ فلسطين إنما هي ثنائيات عقائدية، دينية، توراتية، وليست تاريخاً. فكنعان في مقابل إسرائيل، ويهوه في مقابل بعل، والتوحيد في مقابل التعدد الوثني، كلها ثنائيات أدب ديني لا غير. فليس هناك ما يؤكد أن مملكة إسرائيل في نابلس (السامرة) كانت تختلف لغوياً أو إثنياً عن أية مجموعة إثنية عاشت في فلسطين وقتها.

تاريخ الهوية

كما هو الحال في حقل التاريخ العام، فإن تاريخ الهوية الفلسطينية هو واحد من

المجالات التي يبدو فيها تأثير النص الصهيوني جلياً واضحاً. فهناك شبه إجماع على الدور الحاسم للحركة الصهيونية في تأسيس الهوية الفلسطينية. صحيح أن الكثيرين يحاولون تخفيف الصوغ الصهيوني المتطرف لهذا الدور، لكن الأغلبية تقبل، من حيث المبدأ، بهذه الفرضية.

والنص الصهيوني يصل، عند أقصى تطرفه، إلى أن يكون مجرد مسخرة بخصوص ميلاد الهوية الفلسطينية، كما هو الحال عند مئير بعيل الذي يعلن "أن الحركة الصهيونية هي من أنجح الحركات القومية في التاريخ، فهي قد بدأت بغرض تأسيس جماعة قومية واحدة، وانتهت بتأسيس جماعتين"؛[11] أي الإسرائيلية والفلسطينية معاً. وهذا يشبه، في الحقيقة، إعلانات السينما الشعبية العربية في دُور العرض المنحطّة حيث يمكنك أن تشاهد "فيلمين بتذكرة واحدة" فقط!!

مع ذلك فهناك، كما قلنا، إقرار ضمني عند الأغلبية بجوهر مقولة بعيل؛ أي بالدور الحاسم للحركة الصهيونية في تشكيل الهوية الفلسطينية. ويعلن باحث فلسطيني، ببساطة، أنه قد "ارتبطت ظاهرة تبلور شخصية 'وطنية' فلسطينية، في العصر الحديث، بالاستيطان الصهيوني."[12] ألا يشبه هذا في الواقع ما يقوله بعيل عن الحركة الصهيونية التي نجحت في إنشاء جماعتين قوميتين بضربة واحدة؟!

ويقول باحث آخر مؤكداً هذا القول، على الرغم من كل محاولاته للتفلّت من هذا الحكم الإجباري: "إن التمايز الفلسطيني إذاً، برغم ارتباطه بظروف تاريخية تسبق الاستيطان اليهودي المكثّف، لم يُصغ كوعي، ولم يبدأ بالتشكّل إلاّ عبر العلاقة مع الاستيطان أساساً."[13]

وكما نرى فهذا، أيضاً، إعادة لمقولة بعيل على الرغم من محاولات التخفيف. ومحاولات التخفيف هذه قام بها بعض الإسرائيليين أنفسهم. فليس الكل قادراً على قبول صيغة بعيل المتطرفة، لكن الكاشفة حقاً. فباروخ كيمرلنغ يوافق على أن "اليهود لم يكونوا الوحيدين في ذلك"، أي في صوغ الهوية الفلسطينية. فقد "كانت هناك عناصر كثيرة اشتركت معاً في صنع الوعي الفلسطيني"، لكن كان "هناك عامل حاسم في صياغة هذا الوعي، يقوم على أرضية الصراع، ويتجسد في الكولونيالية الصهيونية الطارئة."[14]

ثمة، إذاً، عامل حاسم على الرغم من كل محاولات التخفيف. وهذا العامل الحاسم يعيدنا دوماً إلى بعيل.

لكن الإقرار شبه الجماعي لم يمنع التذمّر من هذا الوضع. إذ هناك من ينظر إلى مثل هذا الوضع مكتئباً. فالياس صنبر، في تعليقه على السؤال الذي يحاصر الثقافة الفلسطينية دوماً "هل توجد هوية ثقافية فلسطينية؟" يقول: إن هذا السؤال "يظهر أيضاً دهشة البعض أمام (اكتشاف) شعب يجري التنافس على الترديد بأنه لم ينوجد أبداً

منذ نصف قرن."[15]

هذا التبرّم من "التنافس على الترديد" بأن هذا الشعب لم يوجد إلاّ مع وجود الحركة الصهيونية، وبأن "الحركة الوطنية الفلسطينية ليست سوى الرد العكسي على الحركة الصهيونية"، يوحي بالرغبة في الخلاص من أطروحة بعيل الصهيونية. فالكاتب يضيف: "وبدل التساؤل عما إذا كانت الثقافة الفلسطينية موجودة قبل 1948، ألا ينبغي بالأحرى الحديث عما يسمح بتأكيد شخصية ثقافية خاصة بالفلسطينيين؟... ذلك أن القول بثقافة فلسطينية مختلفة عن الثقافة العربية بالطريقة نفسها التي تميزت بها الثقافة الإيطالية والثقافة الفرنسية أو الألمانية ليس سوى انحراف عن السويّ"، و"ما يميّز الكتّاب الفلسطينيين لا يقوم في أنهم مختلفون عن كونهم عرباً بل إنهم يتكلمون العربية انطلاقاً من فلسطين."[16]

وهنا لا نتقدم إلى الأمام؛ ذلك بأن خلط الوطني بالقومي لن ينفعنا. فالسؤال المطروح هو ما إذا كان هناك هوية فلسطينية خاصة تتكلم العربية من دون أن يُعزى وجودها إلى الحركة الصهيونية.

لكن ثمة محاولات أُخرى للهروب من الأطروحة الصهيونية، إجمالاً، يأتي بها فيصل درّاج. فهو يذكر أن بعض العاملين في النظرية الأدبية يقول "إنه لا وجود لنصّ أدبي إلاّ مقارنة مع نصّ آخر، يضيء ما تميز به الأول والعناصر التي شكلته والأسباب التي أملت كتابته. والنصّ الآخر الذي ينير الهوية الثقافية الفلسطينية هو النصّ الصهيوني."[17]

هنا لا يؤدي النص الصهيوني، أو الصهيونية، دوراً حاسماً في تشكيل النص الفلسطيني أو الهوية الفلسطينية. وكل ما يفعله هو "إثارة" الآخر الفلسطيني وتوضيحه. وهذا هو حال كل هوية. فما من هوية لأي شعب في العالم تنهض وحدها، وإنما تنهض حين تصطدم بنقيضها وعدوها. وعليه، فإن حركتين قوميتين تتناقضان لا بد من أن تؤثر إحداهما في الأُخرى. فالهوية الفيتنامية، مثلاً، يمكن أن تعدّ صنيعة صينية، إذا تبعنا هوى بعيل أو كيمرلنغ. فالخطر الصيني كان دوماً عنصراً حاسماً في دفع الهوية الفيتنامية في طرق محددة. وكذلك كانت الهوية المكسيكية، كمثل آخر، في علاقتها بالهوية الأميركية. فقد كانت مشكلة المكسيك، كما يقول أحد رؤسائها، أنها "قريبة جداً من الولايات المتحدة، وبعيدة جداً عن الله."

أطروحة فيصل درّاج عن "الإنارة" تعني أن الهوية تكون "معتمة" أو "نائمة" فتأتي الهوية المضادة لإنارتها وإيقاظها. إنها موجودة، وكل ما يفعل الخطر المضاد، الهوية المضادة، إنما هو بعثها وإيقاظها. وهذه الأطروحة، على الرغم من غموضها النسبي، تفتح الباب، ولو مواربةً، لرفض فكرة الدور الحاسم للحركة الصهيونية في تشكيل الهوية الفلسطينية.

والحق أننا شهدنا محاولات جديدة لإنشاء تاريخ خاص للهوية الفلسطينية لا تتحكم فيه نظرية بعيل. فهناك، مثلاً، من يعيد بذور تبلور هذه الهوية، بهذا الشكل أو ذاك، إلى بدايات القرن الثامن عشر، مركزاً على دور القدس في هذا المجال (رشيد الخالدي). وهناك، على الأقل، بعض النصوص المركزية المهمة في هذا الشأن. وقد كانت مشكلة عدم وجود النصوص، أو قلتها، مشكلة مركزية في دراسة الهوية الفلسطينية. وأهم هذه النصوص نص محمد علي باشا. فعندما انضم الأسطول العثماني إلى الأسطول المصري بعد يوم واحد من معركة "نصيبين"، أي في 9 تموز/يوليو 1839، وقف محمد علي يخطب في الأسطول قائلاً: "يا أبنائي، إننا جميعاً أمة واحدة. من الآن فصاعداً يجب أن لا يقول أحد منّا: أنا مصري، أو أنا فلسطيني. فلنا جميعاً عقيدة واحدة ورأس واحد، وتلزمنا الوحدة لنعيد للسلطة منعتها."[18]

هذا الكلام يأتي على لسان أهم شخصية في المشرق العربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر. لذا لا يمكن تجاهله، لأن قائله يدري ما يقول، وله إطلالة كاملة على الأحداث. والحال أن هذا النص يشير إلى هوية فلسطينية، في ذلك الوقت المبكر، تضع نفسها فوق الولاءات المناطقية وترغم محمد علي على الإشارة إليها بالتوكيد. ولم يكن محمد علي ليشير إلى الفلسطينيين كمجموعة خاصة لو لم ينظروا هم إلى أنفسهم على أنهم كذلك.

لم يذكر محمد علي صفة شامي، أو لبناني، أو سوري، أو نابلسي، وإنما ركز على عنصرين في إمبراطوريته في تلك اللحظة: المصري والفلسطيني، داعياً إلى الوحدة بينهما، باعتبارهما أساس الوحدة التي يريدها. وهو قد فعل ذلك انطلاقاً من ثورة الفلسطينيين الكبرى ضده سنة 1834.

من الواضح، إذاً، أن الفلسطينيين كانوا يعرّفون أنفسهم كفلسطينيين على الأرض، قبل أن يضطر محمد علي إلى الإقرار بهذا التعريف.

ويبدو أن الهوية الفلسطينية كانت تتبلور دوماً عبر الانتفاضات الفاشلة. فكل انتفاضة منيت بالفشل في تحقيق أهدافها، كانت تدفع الهوية الفلسطينية إلى التماسك والتصاعد. وهذا عكس ما تشير إليه الظواهر، وعكس ما يقوله بعض الباحثين من "أن تاريخ الوعي الفلسطيني للذات لم يتميز بكونه متصاعداً زمنياً [....] بقدر ما أنه امتاز بالمراوحة ما بين عدد من الانتماءات والولاءات التاريخية."[19] فالهوية الفلسطينية كانت تلعب دوماً بمكوناتها الثلاثة الأساسية (الوطنية، والعربية، والإسلامية) للخروج من المآزق، فيتهيأ للبعض، أحياناً، أنها تراوح مكانها. فحين يفرض الصراع وضروراته التركيز على المكوّن العربي، يأخذ البعض هذا كأنه انتكاس للمكوّن الفلسطيني. إن الهوية الفلسطينية لعب مستمر، وبراغماتي، ومراوغ، على هذه العناصر الثلاثة لمصلحة العنصر الأول، دوماً.

في كل حال، فقد حان الوقت لتصفية الحساب مع نظرية بعيل، التي يوافق عليها الجميع من حيث المبدأ، تقريباً؛ ذلك بأنها تؤدي إلى نتائج وتبعات مدمرة. فهي تجعل من وجودنا نتاجاً لوجود العدو، عدونا. إذ نحن لم نكن موجودين قبله إلاّ كهيّولى. وهو، على الرغم من وجوده العدواني، أو بواسطة هذا الوجود ذاته، شكَّلَنا وألبسنا هويتنا. وما دامت الأرض كمفهوم مرتبطة بالوجود، فإن أرضنا ذاتها لم تكن أرضنا. فمن ليس له وجود ليس له أرض. وهذا يعني أنه لم يخترعنا فقط، بل اخترع أيضاً أرضنا في اللحظة ذاتها. إذاً، فنحن مدينون له بكل شيء، الأمر الذي يجعل من وصف وجوده بالعدوان، وفعله بالاغتصاب، وصفاً يدل على نكران للجميل. كما أن وقوفنا في وجهه يصير هو الآخر مسألة لاأخلاقية: إنه مثل وقوف إبليس في وجه الإله. فهو يتمرد على من خلقه وأوجده، ونحن نفعل مثله تماماً!!

إذاً، فنحن لا نتعامل هنا مع نظرية بريئة، وإنما مع قنبلة تتفجر في أعماق كل واحد منا. وقد بلغ من قوة وتأثير هذه "النظرية" أننا صرنا نفكر بواسطتها. لقد أصبحت عميقة الجذور إلى حد أن أغلبيتنا صارت تظن أنها بديهية، يكفي تثبيتها بسطر أو سطرين كي تمر وتُقنع.

والحال أن القبول بهذه النظرية يعني القبول بمضمونها العنصري. ذلك بأنها تعني أن "المجموعة البشرية" الوحيدة في المنطقة العربية التي لم تكن قادرة على تشكيل هويتها الخاصة، أي وجودها، إلاّ عبر تدخل خارجي، إنما هي "الشعب الفلسطيني". فالسوريون والعراقيون وغيرهم تمكنوا من فعل ذلك ببساطة، ومن دون هذا التدخل. فالله لم يمنّ عليهم بالحركة الصهيونية كي تنقلهم من اللاوجود إلى الوجود كما فعلت معنا. فهل كان الفلسطينيون غير قادرين على الوصول إلى هويتهم وبلورتها كالعراقيين والسوريين؟ نعم. هذا ما تقوله النظرية الصهيونية، نظرية بعيل. فالفلسطينيون عنصر مختلف تماماً. لقد جُعلوا هكذا بحكمة ما كي تجيء الحركة الصهيونية وتدفعهم إلى أن يقفزوا هذه القفزة: أي أن يصيروا شعباً. لقد عُطّلوا كي يتمكن "شعب الله المختار" من تحقيق معجزته: أي تكوين حركتين قوميتين، شعبين، بضربة واحدة. ولو تأخر "شعب الله المختار" في القدوم مئة عام أُخرى، لظل الفلسطينيون عاجزين عن هذه القفزة. هذا هو جوهر مقولة بعيل النظرية التي يقبل بها الجميع.

والحال أن الحقيقة عكس ذلك تماماً. فالحركة الاستيطانية الصهيونية أدت إلى تأخر تبلور الهوية الفلسطينية وعرقلت تطورها. فقد دفعتها، تحت الضغط، إلى أن تدمج ذاتها في غيرها، أي في محيطها، وأن تُعمي وعيها بهذه الذات.

إنها لم تساهم في خلقها أو بعثها فحسب، بل دفعتها أيضاً خطوات إلى الوراء مقارنة بالهوية السورية، مثلاً، أو بغيرها من الهويات في المنطقة العربية. أمّا الحديث

عن "أن التخوف من الخطر الصهيوني قد أضفى على الحركة العربية في فلسطين طابعاً خاصاً، وساهم في ظهور الإرهاصات الأولى للوطنية الفلسطينية"،[20] فهو كلام معاكس للحقيقة على امتداد الخط. فالخوف من الخطر الصهيوني هو الذي أدى، على وجه الخصوص، إلى ضرب براعم الوطنية الفلسطينية الحديثة وتعميتها وخلطها بغيرها. وهو بدل أن يضفي على "الحركة العربية في فلسطين طابعاً خاصاً" أضفى عليها "طابعاً عاماً"، أي أرغمها على أن تكون عربية عامة، أكثر من كونها فلسطينية خاصة.

ولو عدنا إلى تلك اللحظات الحاسمة التي أعقبت انتهاء الحرب العالمية الأولى، أي لحظات انهيار الإمبراطورية العثمانية، لتأكد لنا ذلك. ففي المؤتمر العربي الفلسطيني الأول الذي عقد خلال الفترة 27 كانون الثاني/يناير – 9 شباط/فبراير 1919، أُرغمت الحركة الوطنية الفلسطينية، في الواقع، على "شلح" هويتها الوطنية الخاصة، بسبب الخوف من الخطر الداهم الذي مثلته الحركة الصهيونية. فقد كان الاتجاه العام قبل المؤتمر يميل نحو "فلسطين للفلسطينيين"، إلاّ إنه مع انتهاء المؤتمر كان تم التخلي تماماً عن هذا الشعار خوفاً مما قد يحمله من تبعات على الصراع الفلسطيني مع الحركة الصهيونية. إذ في ذلك الوقت، أي وقت عقد المؤتمر، تكشّف للحركة الفلسطينية وعد بلفور ومغزاه، كما تكشّف لها نطاق نفوذ الحركة الصهيونية وقوتها، الأمر الذي جعلها تشعر بأنها غير قادرة على مواجهتها وحدها. وهكذا أزيح شعار "فلسطين للفلسطينيين" لمصلحة شعار "فلسطين سورية الجنوبية".

ولننظر إلى ما كتبه أحد المراقبين والمشاركين في النقاش الدائر وقتها، أي وقت المؤتمر، وهو خليل السكاكيني في يومياته (لم تنشر كاملة بعد). يقول: "إذا قلتم فلسطين للفلسطينيين فمعنى ذلك أنكم تخرجوننا عن الجامعة العربية، فضلاً عما هناك من الخطر. إذ يقول العالم حينئذ إن اليهود فلسطينيون، فلهم الحق في أن ينزلوا فلسطين ويتخذوها وطناً لهم." ويضيف: "إن من الفلسطينيين من يرى ضم فلسطين إلى سورية"، ومنهم "من يرى إلحاق فلسطين بمصر... تكثّراً بالمصريين أمام سيل المهاجرة الصهيونية الجارف."

وهكذا فـ "الخطر الصهيوني"، خطر "المهاجرة الصهيونية الجارف" كان يدفع بالحركة الفلسطينية إلى الاندماج في سورية، بل حتى في مصر، من أجل درء هذا الخطر؛ أي يدفعها إلى أن تتخلى عن "طابعها الخاص" وتتشبث بـ"طابعها العربي العام"، أو يدفعها إلى أن تصبح أكثر عروبية، وأقل فلسطينية.

وقد كان السكاكيني، رحمه الله، واحداً من أعداء فكرة "فلسطين للفلسطينيين". فهو يكتب في يومياته قبل عقد المؤتمر العربي: "الرأي الغالب في الجمعية [الفلسطينية] أن تطلب الجمعية من مؤتمر الصلح حق اختيار الحكومة التي تريدها

أسوة بسورية والعراق. وهناك فريق آخر يرى أن تكون فلسطين للفلسطينيين. وكلا الرأيين فاسد، لأنهما يعنيان فصل فلسطين عن الجامعة العربية [المجموعة العربية]، فإذا فصلت فلا بد أن يكون مصيرها... يهودياً."

وعليه فـ "الخطر الصهيوني" كان يدفع بعض الفلسطينيين نحو رفض شعار "فلسطين للفلسطينيين" وشعار استقلال فلسطين، لأنه قد يؤدي إلى أن يصبح مصير فلسطين يهودياً. وبالتالي، رأى هؤلاء الفلسطينيون أن "يخُصوا" هويتهم الذاتية، وأن يدمجوا ذاتهم في المحيط العربي العام خوفاً من الخطر الصهيوني.

لكن هذا البعض تحول إلى أكثرية جارفة في المؤتمر العربي. يقول السكاكيني في اليوميات ذاتها: "زارني يوسف العيسى فقال قررنا [أي قرر المؤتمر] في جلسة أمس أن نُحيل اسم فلسطين سورية الجنوبية فسرّني ذلك لأنه يُؤذن بعلاقة فلسطين بسورية، فكأنه إعلان لمذهب جديد يعتنقه الرأي العام، وكأنه إبطال لذلك المذهب أن فلسطين للفلسطينيين."

والحق أنه كذلك. فالتخلي عن اسم فلسطين ذاته، واستبداله باسم "سورية الجنوبية"، كانا يعنيان إحلال "مذهب جديد"، يطمس الهوية ويدمجها في غيرها، محل مذهب "فلسطين للفلسطينيين" بفعل ضغط الخطر الصهيوني، وبفعل ضغط "الوضع الخاص" الذي كانت تريده بريطانيا لفلسطين من أجل تنفيذ المشروع الصهيوني. فإذا كان "الوضع الخاص" هو ما تريده بريطانيا فإننا نرفض هذا "الوضع الخاص" وما يشبهه، أي الاستقلال، من أجل درء الخطر الصهيوني.

وعليه، فإن اكتمال وضوح الخطر الصهيوني مع نهاية الحرب العالمية أدى إلى نتيجة واحدة: اندماج الحركة الفلسطينية في المحيط العربي، والتخلي عن طابعها الخاص، لأنها شعرت بأنها غير قادرة على التصدي لهذا الخطر. ويمكن القول إن هذا الوضع ظل يلاحق الحركة الفلسطينية طوال القرن العشرين؛ فشعورها بالعجز عن مواجهة الخطر الصهيوني كان يخفف وعيها الذاتي لمصلحة الوعي العربي العام، على عكس جميع الحركات والهويات العربية التي ظلت طوال القرن العشرين تزيد في التركيز على وعيها الذاتي.

ويفاجئنا السكاكيني بما هو أشد مما قال. فهو يضيف: "وفي الطريق التقينا بشكري أفندي التاجي، وهو من الذين يدعون لأن تكون فلسطين للفلسطينيين فتناوله أبو الفضل [محمد إسعاف النشاشيبي] وقرّعه تقريعاً أليماً، وقال إن فكرة فلسطين للفلسطينيين ليست إلاّ فكرة صهيونية!"

إلى هنا وصل الأمر إلى حد اتهام من يقول إن فلسطين للفلسطينيين بأنه صاحب فكرة صهيونية. وهذا ما أدى إلى إلغاء اسم فلسطين وإعطائها اسم "سورية الجنوبية". لقد ألغت الذات هويتها واسمها، ظانة أنها بذلك تحمي وجودها وتهرب من الخطر

المحيط بها؛ ذلك بأن الوعي بالذات، بالانفصال، بالتميُّز، بوجود حدود، كان يهدد بأن يضع فلسطين المسكينة الصغيرة وحدها أمام المشروع الصهيوني. نعم، لقد "أخصى" الفلسطينيون وعيهم الذاتي كي ينجوا، مثلما يفعل حيوان السمّور في الأسطورة. فهو حين تطارده الحيوانات المفترسة يعمد إلى قطع خصيتيه ويرمي بهما كي تتلهى بهما عنه فينجو. أمّا الفلسطينيون فقد أخصوا وعيهم الذاتي بأنفسهم من أجل النجاة.

وبعد هذا يقال لنا إن الوجود الصهيوني ساهم في بلورة الهوية الوطنية الفلسطينية، وفي إظهار "طابعها الخاص"! وبعد هذا نجد أناساً ما زالوا مقتنعين بأن الصهيونية هي التي أوجدت الهوية الفلسطينية بحسب نظرية بعيل.

والحق أن الهوية الفلسطينية ظلت تعاني، طوال القرن العشرين، جرّاء الوضع الذي وجدت نفسها فيه بعد الحرب العالمية الأولى. فبعد نكبة 1948، "ساحت" الحركة الوطنية الفلسطينية في الحركة القومية العربية العامة، إلى أن استعادت وعيها بذاتها في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات. كما أننا رأينا كيف أن فكرة الدولة الفلسطينية كانت فكرة مرفوضة عند عدد من أجنحة هذه الحركة، انطلاقاً من النظرية القديمة ذاتها، نظرية أن استقلال الفلسطينيين بذاتهم سيؤدي إلى انتصار الخطر الصهيوني.

ومن الواضح أن الفلسطينيين لم يكونوا ليجدوا عناء كبيراً في رفع شعار "فلسطين للفلسطينيين" لو أن الحركة الصهيونية لم توجد. لقد كانوا سيسيرون على خطى سورية أو العراق بشكل عادي. لكن وجود هذه الحركة بالذات ساهم في تأخير وعيهم الذاتي، بل أرغمهم في لحظة من اللحظات على رفض اسم بلدهم "فلسطين".

بناء على ذلك، يمكن القول إن الحركة الصهيونية أرغمت الحركة الفلسطينية على رمي ثوبها وهويتها لترتدي ثياب أقاربها رغبة في النجاة. وهذا يعني أن مساهمة الحركة الصهيونية في خلق الهوية الفلسطينية كانت مساهمة سلبية: عرقلت هذه الهويةَ، ومنعتها من إعلان نفسها بالوضوح الكافي.

لكن الغريب هو أن تكون نظرية بعيل بشأن اختراع الحركة الصهيونية للحركة الفلسطينية، قد قُبلت في الوسط الثقافي الفلسطيني إلى حد أنها تحولت إلى مسلّمة. وهذا يدل على مدى تلوُّث النص الفلسطيني بالنص الصهيوني. لقد تلوّث الأول حتى صار يردد مسلمات الثاني، التي تعاكس الواقع والحقيقة معاكسة تامة. وهذا يظهر مدى حاجتنا إلى نقد نصنا والتمعن فيه، كي يصبح نصنا حقاً! ■

المصادر

(1) كيث ويتلام، "اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات التاريخ الفلسطيني"، ترجمة سحر الهنيدي، "عالم المعرفة" (الكويت)، العدد 249 (1999)، ص 30.

(2) محمود درويش، "من يكتب حكايته يرث أرض الحكاية" (حوار أجراه عباس بيضون)، "مشارف" (القدس)، العدد 3 (1 تشرين الأول/أكتوبر 1995)، ص 86.

(3) ويتلام، مصدر سبق ذكره، ص 33.

(4) الياس شوفاني، "الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة 1949)" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الثانية، 1998)، ص 94.

(5) Thomas L. Thompson, *The Mythic Past: Biblical Archaeology and the Myth of Israel* (New York: Basic Books, 1999), p. xv.

(6) الياس صنبر، "عن الهوية الثقافية للفلسطينيين: العودة إلى الزمن"، "الكرمل"، عدد خاص 55 – 56 (1998)، ص 351.

(7) عزمي بشارة، "في الذاكرة والتاريخ"، "الكرمل"، العدد 50 (شتاء 1997)، ص 50.

(8) زكريا محمد، "الأيديولوجيا الكنعانية"، "الأيام"، 30/4/1997.

(9) بشارة، مصدر سبق ذكره، ص 49.

(10) إيللا شوحت، "كولومبوس، فلسطين، واليهود والعرب: نحو مقاربة علائقية لهوية المجموعة"، "الكرمل"، العدد 52 (صيف 1997)، ص 46 – 47.

(11) مئير بعيل في: عصام نصار، "إشكالية كتابة تاريخ الهوية الفلسطينية"، "الكرمل"، العدد 63 (ربيع 2000)، ص 247.

(12) ماهر الشريف، "البحث عن كيان: دراسة في الفكر السياسي الفلسطيني، 1908 – 1993" (نيقوسيا: مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، 1995)، ص 19.

(13) نصّار، مصدر سبق ذكره، ص 251.

(14) "باروخ كيمرلنغ: لعله التابو الأخير"، حوار أجراه محمد حمزة غنايم، "الكرمل"، العدد 59 (ربيع 1999)، ص 116.

(15) صنبر، مصدر سبق ذكره، ص 351.

(16) المصدر نفسه، ص 356.

(17) فيصل درّاج، "في الهوية الثقافية الفلسطينية"، "الكرمل"، العدد 50 (شتاء 1997)، ص 31.

(18) مسعود ظاهر، "النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقومات واختلاف النتائج"، "عالم المعرفة" (الكويت)، العدد 252 (1999)، ص 122.

(19) نصّار، مصدر سبق ذكره، ص 250.

(20) الشريف، مصدر سبق ذكره، ص 25.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf